

## مفكر ألماني يرثيه المسلمون ولا يفتحون كتبه

مراد هوفمان

عن الإسلام والإسلام كبديل

إبراهيم الجبين  
كاتب سوري

قبل أيام معدودة رحل عن عالمنا مراد ويلفريد هوفمان الذي ظلت حياته وأفكاره منار جدل وتساؤلات للكثيرين. البعض تعجب من إقبال هوفمان الكاثوليكي الألماني والدبلوماسي المخضرم على الإسلام في ظل تصاعد الحركات الإسلامية المتشددة، وهو الذي أعلن اعتناقه لدينه الجديد في خريف العام 1980. والبعض الآخر رأى في ظهور هوفمان تكراراً لشبهه وولادة مستشرق جديد يلامس الحياة والفكر الإسلاميين من بعيد دون أن يتعمق في إشكالياتهما التي لم تجد حلولاً بعد بين المسلمين أنفسهم.

ورغم مرور عقود طويلة على نهاية الحرب العالمية الثانية، إلا أن الألمان ما زالوا يكررون مقولة رئيس الوزراء البريطاني الأسبق تشرشل عن الديمقراطية، وعن كونها "أسوأ أشكال الحكم، باستثناء كل الأشكال الأخرى التي تمت تجربتها"، مبررين ذلك مسائلاً النظام الديمقراطي. غير أنهم يعتبرونه أفضل السبب. هوفمان، بدوره، انطلق في رحلته نحو الإسلام من تلك النقطة، فهو يرفض الاعتراف بأن الديمقراطية الغربية هي أفضل ما أنتجته البشرية، مضيفاً إلى ما يرفضه "العلمانية والرأسمالية" في الوقت ذاته.

تبتنا هوفمان بأن القرن الحالي، وقد كتب نبوغه تلك قبل سنوات من انقلاب اللفية، هو قرن إسلامي بجدارة وسوف ينبعث من أوروبا. لكن كيف؟

## فهم جديد للإسلام

شكل كتابه "الإسلام كبديل" نوعاً من الصدمة للجمهور الألماني، فهو هوفمان يؤكد في مقدمته التي وضعها في مدينة الرباط بالمغرب، بأن العالم نظر إلى الإسلام كطريق ثالث بين الرأسمالية والشيوعية أيام الحرب الباردة، لكنه اليوم البديل للنظام الغربي برمته. وهو ليس واحداً من البدائل للعصر ما بعد الصناعي الغربي، بل هو البديل الأحدث على حد قول هوفمان.

هوفمان يحذر من نوع من الأصوليين الذين تصدوا لمهمات أن يلبوا الشروط كافة فهؤلاء يقرأ كل واحد منهم القرآن متحرراً من القيود التقليدية اللازمة التي تكبح عادة جماع الدارسين والعاملين في المجال الديني

رؤية هوفمان للإسلام، تصفها المستشرقة الألمانية القديرة آنا ماريا شميل، بأنها أقرب إلى رؤية الشاعر والفيلسوف الباكستاني محمد إقبال، من حيث كونها دعوة لتجديد فهم الإسلام وأفكاره، بعيداً عن التشدد الذي حاربه آخرون يشبهون تجربة هوفمان مثل فضل الرحمن وسواه.

وكثيراً ما ينتقد هوفمان الغرب لأنه نظر إلى الإسلام على أنه دين انتشر بالسيف، بسبب رسائل النبي محمد إلى هرقل وبسبب الغزوات والحروب في بلاد الشام ثم بعد حين حصار القسطنطينية، ويتهم الغرب بأنه بُعث فكرته عن الإسلام عند تلك اللحظة وعلى تلك الهيئة. غير أن هوفمان يتسامح مع كون تلك الفكرة ليست حكرًا على الغربيين وحدهم، بل إن غالبية من المسلمين ترى هذا، وتعتقد أن السيف أسبق من الفكر في انتشار العقيدة.

في كثير من مفاصل شغل هوفمان على "الإسلام البديل" نراه يلاحق التاريخ، ليكون الدليل الذي يتخذه هوفمان على صحة نظريته. فقد كان ردّ الغرب على انتشار الإسلام، بالحروب "الصليبية"

● هوفمان يعد شخصية ذات بعد عالمي، وقد نال العديد من التكريمات، من بينها جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم التي صنفتها "شخصية العام الإسلامية" سلمه إياها الشيخ محمد بن راشد.

اللازمة، تلك القيود التي تكبح عادة جماع الدارسين والعاملين في المجال الديني. وهم مثل غيرهم من الشباب معرضون للتأثر بنزعة المناهضة بالإصلاحات الجزئية وتغيير شكل الحكم والبحث في شرعية النظام الحاكم بناءً على قراءتهم القاصرة للدين. ما يخلق عندهم نوعاً من التعصب أكثر حدة من ذلك الذي يمكن أن يوجد لدى التقليديين.

## سؤال الدولة

لا يسمح هوفمان لأحد بالتشكيك بأن الإسلام لم يطلب إقامة دولة كهنوتية مثل تلك التي نشأت في أوروبا في القرون الوسطى، بحيث يقبض رجال الدين على عالم السياسة. وهو يقول إن هذا كله لم يرد ولا حتى مرة واحدة في القرآن.

ويقول بالحرف الواحد "أما إذا نسي المسلمون أن عالم السياسة هو مجال النشاط البشري الفاني وغير المعصوم، وأن الله يغفر للحكومات ولا يقيمها، وأنه ليس في الإسلام بناء هرمي للعبادة مثل ذلك الذي في المسيحية، إذا نسي المسلمون ذلك كله فقد تكون النتيجة نظاماً أحاديًا استبدادياً شمولياً ترتب عن قمته سلطة دينية جاهلة، فالدولة الدينية بمعناها الضيق المتعارف عليه، دولة غير إسلامية".

ولد هوفمان مطلع ثلاثينات القرن العشرين في بافاريا، وفي بداية حياته كان عضواً في منظمة شبيبية هتلر النازية، درس في ميونيخ، وفيها تعلق بالموسيقى والرقص وأسس نادياً لراقصي الباليه، وعمل محامياً قبل أن يلتحق بالعمل الدبلوماسي في خمسينات القرن الماضي، وعمل كخبير في الدفاع النووي في وزارة الخارجية الألمانية. وبعد إعلائته إسلامه وضع العديد من المؤلفات مثل "رحلة إلى مكة" و"الإسلام البديل" والعديد من المحاضرات والأبحاث الهامة التي لم تتردد في مناقشة القضايا الإشكالية في الإسلام مثل الحجاب وحقوق المرأة وغيرها.

ظل العالم الإسلامي يعد هوفمان شخصية ذات بعد خاص. وقد حصد العديد من التكريمات والجوائز، من بينها جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في دورتها الثالثة عشرة التي صنفتها "شخصية العام الإسلامية". وتسلمها من الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الإمارات. وكان قبلها قد وقع رسالة مفتوحة إلى الزعماء الدينيين للمسيحية" مع 138 عالماً إسلامياً من جميع أنحاء العالم، بعنوان "بيننا وبينكم" أرسلت للبابا بندكت السادس عشر.

أبحاث هوفمان مفيرة وقائمة على الجدل والتفكير وحرية التحليل، وقد يجد المرء غرابة في احتفاء الإسلاميين به على عجل دون أن يفتحوا أياً من كتبه، ودون أن ينظروا ملياً في أن فكره كله قائم على البنية نقدية للعقل الإسلامي المعاصر، بقدر إقباله الكبير على الإسلام كفكر وفضاء.



رفض الإسلاميين لعلوم الغرب وثقافته ومحاولتهم أسلمة المعرفة ظاهرة يقول هوفمان إنها تذكره بما فعله الألمان في الثلاثينات من القرن الماضي حين حاولوا تنقية العلوم من الآثار اليهودية

وجعلهما علمين أريين. يميّز هوفمان بين أصوليات عدة، وهو يرجع الأصولية الأولى إلى مصطلح ظهر في الولايات المتحدة الأميركية لوصف المسيحيين الإنجليبيين الذين تمسكوا بحرفية الكتاب المقدس، ومثلهم اليهود الحسيديون أمثال مناحيم شنيرسون في نيويورك وفي القدس. ويذكر كيف وصل هذا المصطلح إلى وزارة الخارجية الألمانية في مؤتمرها المنعقد في يناير 1987 والذي أقرت فيه معنى الأصولية على هذا الشكل "حركة تمتثل للقواعد القانونية والقيم وأساليب ممارسة الإسلام الأصلي عند ظهوره، كنموذج لتشكيل الحاضر، فهي أسلوب لرؤية العالم والتعامل معه".

ولكن، وقبل هذا كله، كان المسلمون يطلقون هذا المصطلح على أناس آخرين، إنهم أولئك الذين التزموا بعلم الأصول وهو حقل في المعرفة بسمونه أعلى العلوم ويطلقون عليه اسم "علم القواعد". ولهذا العلم شروط كبرى كانت تتمثل في معرفة وإتقان اللغة العربية والتفاسير والأحكام والحديث والسيرة وسواها. هؤلاء الأصوليون القدامى كانت تقع على عاتقهم مسؤولية الإصلاح. وقد مروا بمراحل عديدة تغيرت فيها طبيعة تكوينهم، ولم تتغير مهامهم. لكن شروطهم بقيت ثابتة حتى جاء العصر الحديث. يحذر هوفمان من أن الأصوليين الملتزمين بالقواعد العلمية والذين يسميهم بـ"الأصوليين العقلانيين"، لا يشكلون خطراً حقيقياً على الحكومات والمجتمع، بقدر ما يشكله أولئك الذين تصدوا لمهام الإصلاح من دون أن يلبوا كافة الشروط، ويضرب مثلاً بطلاب كليات الهندسة وغيرها، ممن تلقوا العلوم الغربية في البلاد العربية والإسلامية. فهؤلاء يقرأ كل واحد منهم القرآن متحرراً من القيود التقليدية

وكان أسوأ الهجمات هجمات الغزالي ضد الفلسفة في "تهافت الفلاسفة"، ورغم أن ابن رشد ردّ عليه بعدها بسنوات، بكتابه "تهافت التهافت" إلا أن المسلم السنّي اقتنع منذ ذلك الحين أن المعرفة الحقيقية والوحيدة والكافية هي الالتزام بما يقوله الفقهاء.

وكان أسوأ الهجمات هجمات الغزالي ضد الفلسفة في "تهافت الفلاسفة"، ورغم أن ابن رشد ردّ عليه بعدها بسنوات، بكتابه "تهافت التهافت" إلا أن المسلم السنّي اقتنع منذ ذلك الحين أن المعرفة الحقيقية والوحيدة والكافية هي الالتزام بما يقوله الفقهاء.

أصوليون خطرون ما زاد الطين بلة، حسب هوفمان، التصاق المثقفين العرب بنظرائهم الغربيين، فتخلوا عن أسس حضارتهم، إذ أن الغرب من جهته يعاني من ترفيع العلوم على الآخر. بينما رفض آخرون علوم الغرب وثقافته، واعتبروها علوماً شيطانية، فأخذوا يحاولون أسلمة المعرفة. ويقول هوفمان إن هذا يذكره بما فعله الألمان في ثلاثينات القرن الماضي حين حاولوا تنقية العلوم من الآثار اليهودية وتحريم الرياضيات والفيزياء

ما زاد الطين بلة، حسب هوفمان، التصاق المثقفين العرب بنظرائهم الغربيين، فتخلوا عن أسس حضارتهم، إذ أن الغرب من جهته يعاني من ترفيع العلوم على الآخر. بينما رفض آخرون علوم الغرب وثقافته، واعتبروها علوماً شيطانية، فأخذوا يحاولون أسلمة المعرفة. ويقول هوفمان إن هذا يذكره بما فعله الألمان في ثلاثينات القرن الماضي حين حاولوا تنقية العلوم من الآثار اليهودية وتحريم الرياضيات والفيزياء

في العالم الإسلامي يرسد هوفمان صعود نماذج عربية اعتبرها نماذج لدول حاولت استلهام النمط الغربي، مثل مصر والجزائر وتونس، ورغم أنه يعطي

